دولة آل عثمان

٧

ذكرنا في الجزء الماضي ان اثنين من العرب خانا سلطان مصر طومان باي بعد ان اجاراهُ وسلماهُ للسلطان سليم فشنقهُ على باب زويلة وانقضى بهِ ملك المماليك الجراكسة في القطر المصري . اما السلطان سليم فجعل همهُ بعد ذلك جمع اصحاب الحرف المختلفة من القطر المصري وارسالهم الى القسطنطينية . قال ابن اياس ان جماعة من وزراء ابن عثمان واهل مشورتهِ جلسوا في المدرسة الغورية وشرعوا يطلبون جماعة من القضاة والشهود والمعاشرين واعيان تجار المغاربة وتجار الوراقين وتجار الشرب والباسطية وجماعة من البزدارية ومن السوقة المشبهين في البضائع وطائفة من البناين والنجارين والمرخمين والمبلطين والحدادين وغير ذلك من ارباب الحرف واعيان اليهود فلما تكامل عرضهم في المدرسة الغورية عينوا جماعة منهم ليسافروا الى اسطنبول فكتبوا اسماءهم في قوائم والزموا كل واحد منهم ان يحضر لهُ ضامناً يضمنهُ واضافوا اليهم جماعة اخرى من اليهود وارسلوهم هم ونساءهم واولادهم الى الاسكندرية ومنها الى القسطنطينية ومن تأخر منهم عن السفر او امتنع ضربوهُ واهانوهُ

وذكر اسماء كثيرون من خاصتهم فقال ان منهم القاضي شمس الدين الحلبي احد نواب الشافعية وقد قاسى من العثمانية غاية البهدلة من الضرب والصك وانزلوهُ المركب على رغم انفهِ ومنهم الزيني زين الدين الشرنقاشي احد نواب الحنفية والقاضي بدر الدين ابن جمال الدين الاتيدي والقاضي بدر الدين البالقيني ومحمد المكي الوراق وابن شقيرة التاجر الذي بوجوش و بدر الدين شيخ سوق الغزل وغير ذلك من التجار والاعيان وبعض النصارى كشاب الخزينة وكانت هذه الواقعة من الوقائع المنكرة التي لم يقع لاهل مصر مثلها قط في ما تقدم من الزمان

ثم قال ان ابن عثمان ارسل يقول لامير المؤمنين اعمل برقك حتى تسافر الى اسطنبول (اي استعد للسفر) فكبر ذلك عليهِ وعلى انباريهِ لكنهم لم يروا لهم مناصاً من اطاعة الامر . و يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الاولى (٣ يوليو سنة ١٥١٧) خرج امير المؤمنين المتوكل على الله قاصداً السفر الى اسطنبول وخرج معهُ اولاد عمهِ خليل ومحمد ابو بكر واحمد وصهرهُ محمد ابن العلائي فجعل الناس على فقد امير المؤمنين من مصر غاية الاسف وقالوا قد

انتظمت الخلفاء من مصر وصاروا باسطنبول . وعدة من خرج من اهل مصر الى اسطنبول الف وثمانمئة نفس او اقل لكن انكسر بهم مركب من المراكب التي سافروا فيها وغرق فيه اربع مئة نفس منهم

وان احد اعوان السلطان سليم واسمهُ يحيى بك بركار جعل يركب ويأخذ معه جماعة من المرخين فيهجمون على قاعات الناس ويأخذون ما فيها من الرخام الساقي والزرزوري الملوّن فاخربوا عدة قاعات من اوقاف المسلمين وبيوت الامراء والتجار والمدارس التي فيها الكتب النفيسة . وانزلوا عمودين كبيرين من القلعة من الحجر الساقي وقاسى الناس في مجيئها غاية المشقة ثم انزلوا المكاحل (المدافع) النحاس من القلعة وكانوا يربطون الرجال بالحبال في رقابهم ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ولو كانوا من اعيان الناس

وانهُ طرد سكان الروضة ومصر العتيقة من دورهم وسكنها هو ورجالهُ وكان وزراؤهُ يعدّون الى الروضة في كل يوم ويطلعونهُ على الامور التي يفعلونها بالناس من خير او شر . وصادر اهل الثروة فاخذ ما يمتلكونهُ وكان لزوجة السلطان طومان باي جارية بيضاء جركسية فهربت من عندها وتوجهت الى بعض وزراء ابن عثمان فعرّفتهُ حاصل سيدتها توجهوا اليه ونقلوا كل ما كان فيه من بشاخين زركش وعنبر ومقاعد محور ووشق وحياصات ذهب ولؤلؤ وجوهر مرصّع وكواميل ذهب وآنية بلور وآنية فضة ونحاس مكفّت بالذهب وصيني موشّي بلازورد وغير ذلك فذهب لها اشياء كثيرة بنحو خمسين الف دينار (ثلاثين الف جنيه) وما تنع ابن عثمان بذلك فصادرها ونزل على والدتها بنت الغلائي عشرين الف دينار وقيل اكثر من ذلك فحصل لها ولوالدتها الضرر الشديد ولاسيما شدائد عظيمة

وجمع خراج مصر وانتظر حتى رأى وفاء النيل ثم غادرها في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٩٢٣ وكان راكباً على بغلة صفراء عالية قيل انها من بغال السلطان الغوري وكان عليهِ قفطان مخمل احمر وقدامهُ جماعة من الوزراء والجم الكثير من عساكره بين مشاة وركاب وكان قد ولّى على مصر خاير بك الذي كان نائب حلب وبخيانتهِ انكسر الجيش المصري في مرج دابق وترك عندهُ نحو خمسة آلاف فارس من جيشهِ ونحو ٥٠٠ من الرماة بالبندق الرصاص

قال ابن اياس ان السلطان سليماً ما خرج من مصر حتى عمّ اموالها وقتل ابطالها ويتّم اطفالها وامرمل رجالها ... فلا حول ولا قوّة الّا بالله العلي العظيم . واشيع انهُ خرج منها ومعهُ الف جمل محملة ما بين ذهب وفضة فوق ما غنمهُ من التحف والسلاح والصيني والنحاس والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر واخذ منها من كل شيء

احسنهُ وكذلك ما غنمهُ وزراؤهُ من الاموال الجزيلة وعسكرهُ فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى فما رحلوا عن الديار المصرية الاَّ والناس في غاية البلية . وفي مدة اقامتهِ بالقاهرة حصل لاهلها الضرر الشامل وبطل منها نحو خمسين صنعة لم يعمل بها في ايامهِ بمصر وكانت مدة اقامتهِ بها ثمانية اشهر الاَّ ايامًا قلائل ومن حين فتح حلب الى حين خروجهِ من مصر ستة وشهر واحد . وفي مدة اقامتهِ بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسًا عامًّا ولا رآهُ احد ولا انصف ظالمًا من مظلوم .....

ونمادى في وصفهِ بما لا يحسن ذكرهُ ووصف عسكرهُ بانهم كانوا يجاهرون بشرب الخمر في الاسواق وظالبهم لا يصوم رمضان ولا يصلّي . ثم لخص ما ذكرهُ بقصيدة ركيكة كسائر نظمهِ نثبت منها الابيات التالية

نوحوا على مصر لامر قد جرى ... من حادث عمت مصيبتهُ الورى
زالت عساكرها من الاتراك في ... غمض العيون كأنها سنة الكرى
واتى اليها عسكر سياهمو ... حلق الذقون ولبس طرطور يرى
جل الاله مصدقًا عما حكى ... في سورة الروم العظيمة اخبرا
قد اوعد الرحمن وعدًا صادقًا ... ان ابن عثمان يلي وكذا جرى
ولاَّه رب العرش سلطانًا على ... مصر وهذا الامر كان مقدرا
اين الملوك بمصر من ساداتها ... مثل البدور تضيء وكانت انورا
لهفي على تلك التخافيف التي ... كانت على الامراء تزهو منظرا
لهفي على لبس الكراف بقندس ... بطلت والغوا كل زنط احمرا
لهفي على شيخو وجامعهِ الذي ... قد كان للصلوات يجمع للورى
لهفي على سوق الصليبة كيف قد ... اخلت حوانيت بهِ مما جرى
لهفي على تلك الرخام وفقلهِ ... من كل بيت كان زاهر ازهرا
زالت محاسن مصر من اشياء قد ... كانت بها تزهو على كل القرى
لهفي على الامراء كيف تشتتوا ... وخلت منازلهم وعادت اقفرا
قتلوا باصغر بندق من شأنها ... كالسم تجري في الجسوم ولا ترى
لما تكبرت الجراكسة الاولى ... كانوا بمصر اذلهم رب الورى
الله اكبر انها لمصيبة ... وقعت بمصر ما لها مثل يرى
ولقد وقفت على تواريخ مضت ... لم يذكروا فيها باعجب ما جرى

لهفي على عيش بمصر قد خلت ايامهُ كالحلم ولّى مدبرا
واقى من التكدير ما لا يخبر سمعت به اذن ولا عين ترى

والقصيدة طويلة وهي غاية في الركاكة لفظاً وتركيباً ولكن معناها منطبق على ما تقدم. ولا شبهة في ان ابن اياس كان من الناقمين على العثمانيين ولكنهُ لم يكن يختلق الاخبار اختلاقاً ولا كانت مخيلتهُ تجسمها لهُ بل كان يكتب الاخبار التي يسمعها يوماً فيوماً ويذكرها في معرض الريب اذا كان مرتاباً في صحتها

ومن جميع أعمال خاير بك الذي ولاهُ السلطان سليم على مصر لا يعجب من ان الخراب توالى عليها بل يعجب انهُ بقي فيها احد من سكانها ولكن نفوس الناس مرنة تحتمل الضغط الشديد وطباعهم سلسة تعتاد كل شيء ولله در المتنبي حيث قال

مَن يهُن يسهل الهوان عليهِ ما لجرح بميت ايلامُ

وكما تفقد النفوس الشعور بالالم اذا مانت من شدة الضغط لا تعود تحتمل شيئاً ما اذا زال الضغط عنها وذلك تجد ابناء هذا العصر يستثقلون القذى ويصمُّ آذانهم طنين الذباب

اما السلطان سليم فكان يعرف كيف يرضي العامة على اسلوب لا يعرفهُ غيرهُ فاكرم ابن امير مكة واهدى اليهِ الهدايا وبعث الكسوة للكعبة والضريح النبي وصنع كسوة للمحمل واحضر الف رأس من الغنم ومئة جمل ومئة بقرة وفرقها قرباناً على مجاوري الجوامع والساجد والزوايا والمزارات . ولما وصل الى تربة الاشرف قايتباي وهو خارج مصر وقف هناك وقرأ الفاتحة واهداها اليهِ وكان قبل ذلك لا يشهر الاَّ هند سلك دماء الجراكسة كما قال ابن اياس . فارضى العامة وبعض الخاصة لانهُ لا شيء يخلب الباب المشارقة مثل الاحتفاظ بالشعائر الدينية ولو ظاهراً

وقد اختصر جودت باشا في كلامهِ على فتح مصر اختصاراً مخلاً فقال "ان السلطان سليماً المظفر تتبع جماعة المماليك وابادهم واستولى على الديار الشامية ثم الاقطار المصرية والحجازية وتاريخ ذلك في حساب الجمل "فاتح ممالك العرب" وكان قبل هذا الفتح يدعى سلطان الدولة العثمانية ولقب بعدهُ بخادم الحرمين الشريفين وخليفة الاسلام زيادة على لقب السلطان وعند رجوعهِ من مصر نقل الآثار النبوية الشريفة التي هي شعار الخلافة الى الاستانة عاصمة السلطنة العثمانية فجمع بين الخلافة والسلطنة"

لكن التواريخ القديمة ولاسيما تاريخ ابن اياس الذي كتب في عهد السلطان سليم لا يؤيد ما قالهُ مدحت باشا من ان السلطان سليماً لُقّب خليفة وتاريخ الامير حيدر المخفول

من التواريخ القديمة يلقبهُ ملكاً وسلطاناً لا غير ولم يلقبهُ خليفة

نعم ان علي باشا مبارك ذكر في كتابهِ المعروف بالخطط التوفيقيَّة ما يدل على ان الخليفة المتوكل على الله تنازل عن الخلافة للسلطان سليم لقد قال "انهُ لما تمَّ الامر للعثمانيين واستولوا على مصر اخذوا ينتشون عن امراء الجراكسة فكل من وجدوهُ منهم قتلوهُ ونهبوا منزلهُ حتى فنيت عدة من امراء البلد وتخربت منازلهم ومكث السلطان سليم بالديار المصرية ثمانية شهور يرتب امورها ويمهد قواعدها ثم رحل عنها الى القسطنطينيَّة بنائم كثيرة وعدد عديد من ارباب الصنائع وغيرهم واستصحب معهُ ايضاً المتوكل على الله العباسي الذي كان خليفة بمصر بعد ان استنزلهُ عن الخلافة فخلع نفسهُ منها وتنازل عن حقوقها وفوَّض امورها الى السلاطين من آل عثمان" . ولكن ما ذكرهُ ابن اياس يدل على ان الخليفة انما ترك او خسر الاموال والنذور التي كان يأخذها من مصر فقد قال ما نصهُ . "ان الخليفة (اي المتوكل على الله العباسي) لما سافر الى اسطنبول اخرجوا عنهُ نظر مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها وكان ذلك بيد الخلفاء من قديم الزمان وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت وكان يحصل لهم في كل يوم من الصندوق الذي تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ لهُ صورة (اي كبير) من النذور التي كانت تدخل عليهم فخرج ذلك كلهُ عنهُ"

وانت ترى من ذلك ان ابن اياس بقي يلقب المتوكل بالخليفة حتى بعد ذهابهِ الى القسطنطينيَّة فلا ندري على مَن اعتمد علي باشا مبارك في قولهِ ان المتوكل خلع نفسهُ من الخلافة وتنازل عنها للسلطان سليم قبل سفرهِ الى مصر

وسار السلطان سليم الى الشام بطريق العريش وقتل وزيرهُ يونس باشا في اثناء الطريق . وكان يونس باشا هذا من الذين ساعدوهُ على الوصول الى سرير الملك ويقال انهُ لم يكن يشير عليهِ بفتح مصر فلما كانا في الطريق ذكرهُ السلطان سليم بذلك فقال لهُ يونس باشا انهُ قتل نصف الجيش في فتحها ولم يستفد منها شيئاً لانهُ سلمها لخائن كان غرضهُ التملك عليها . فاستاء السلطان من هذا الكلام وقطع رأسهُ . قال ابن اياس ولما اشيع قتل يونس باشا اضطربت القاهرة واغلقت ابوابها وخاف اهلها من هجوم العرب عليها

ووصل السلطان سليم الى دمشق قاصداً ان يشتي فيها وكانت المجاعة ضاربة اطنابها في بلاد الشام فارسل يطلب من خاير بك اربعين الف اردب شعير وقمح يرسلها اليهِ بحراً وجاء قاصد من قبلهِ الى مصر وقال ان اهل الشام في غاية الضنك والشدة من العسكر لانهم طردوهم من بيوتهم ونزلوا فيها وحصل منهم لاهل الشام الضرر الشامل اكثر مما حصل لاهل مصر

وسار السلطان سليم من دمشق الى حلب وحصنها ليمنع عنها الشاه اسمعيل الصوفي صاحب بلاد الفرس ثم ارتحل الى ادرنة وجعل يستعد لمحاربة الشاه اسمعيل ولإعادة الكرة على جزيرة رودس لكن عاجلتهُ المنون سنة ٩٢٦ ولهُ من العمر اربع وخمسون سنة

ويقول الكتّاب الافرنج ان السلطان سليماً كان اعظم سلاطين آل عثمان شجاعة ومهارة وعلماً وحكمةً وسياسةً ولكنهُ يلقب في التواريخ التركية ياوز سليم اي سليم العبوس لشدة فتكه . وكان شاعراً معدوداً واكثر شعره بالفارسية واشهر في ايامه الفقيه كمال باشا زاده المعروف بابن كمال المشهور في صناعتي النظم والنثر

القطب الجنوبي

لبعض الناس غرام شديد باقتحام المخاطر واكتشاف المجاهل مدفوعين بحب الاكتشاف او بحب الشهرة او بحب الكسب او بذلك كلهِ . وما رغبوا في الوصول اليهِ مهما تجشموا في سبيلهِ من المشاق القطب الشمالي والقطب الجنوبي اي طرفي محور الكرة الارضية . اما القطب الشمالي فاول من قصدهُ وحفظت اخبارهُ السرجون فرنكلين الذي سار نحوهُ سنة ١٨٤٥ قاصداً ان يكتشف طريقاً بحرياً الى اسيا من الشمال الغربي وقضى عليهِ وعلى رجالهِ بعد سنتين او ثلاث ووجدت آثارهم واخبارهم في رحلة هنالك وظهر منها انهم وصلوا في سيرهم الى مكان يبعد ١٣٢٢ ميلاً عن القطب الشمالي

وتوالت البحوث بعد فرنكلين وكل بعثة تحاول ان تبعد اكثر مما ابعدت سابقتها كما ترى في هذا الجدول

السرجون فرنكلين	سنة ١٨٤٧	وصل الى ١٣٢٢	ميلاً عن القطب
مستر لاي مث	" ١٨٧٣	" " ٥٩٢	" " "
الكبتن نيرس	" ١٨٧٦	" " ٤٥٨	" " "
الفتنت لكوود من بعثة غريلي	" ١٨٨٤	" " ٤٥٥	" " "
الدكتور نانسن	" ١٨٩٥	" " ٢٦٠	" " "
الكبتن كاني من بعثة ايروزي	" ١٩٠٠	" " ٢٣٩	" " "
الكومندور بيري	" ١٩٠٦	" " ٢٠٣ أميال	" "

فاقرب ما وصل اليهِ الناس شمالاً يبعد ٢٠٣ أميال عن القطب الشمالي . وقد وصفنا رحلة